# ظهور الاسلام

## للمستشرق الإنجليزى ( ستيفن رانسيمان )

### عرضه الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

## ( ٢ )

**امبراطورية الروم :**

كانت هناك محاولات فى فن السياسة فى عصور ما قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام ، وكان أكبر هذه المحاولات وأعظمها الامبراطورية الرومانية ، ولكنها كانت محاولة فجة وتجربة ناقصة يعوزها الاحكام والسلامة ، من ذلك أنها ضمت مجموعة من الأقاليم المتباينة الثقافة ذات الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المختلفة من منطقة عنها فى مطقة أخرى .

فالأقاليم الشرقية كمصر والشام مثلا لم تخضع كل الخضوع ، بل كانت سلطة الرومان عليها سلطة سطحية ، ومثل هذا يصدق على المدن الكبيرة التى سبق أن بناها المقدونيون ، كالاسكندرية وانطاكيا ، فإنها كانت تسير فى حياتها على النهج الاغريقى .

وفوق ذلك فإن البلاد الداخلية كانت تحيا حياة بعيدة كل البعد عن حياة الحكام تعتمد على الأوضاع القديمة وتتكلم لغات غير لغات الرومان والاغريق .

ومن وقت لآخر كانت تظهر الروح القومية الكامنة فى النفوس ، وليس أدل على ذلك من الثورات والحروب التى قام بها اليهود ومن الحياة المستقلة التى كانت تحياها المملكة ( زنوبيا ) .

من كل هذا يمكننا أن نقول إن الحكم الرومانى كان مفروضا على هذه البلاد

فوق طبقة سطحية من ( الاغريقية ) ولـكنه كان حكما وفر لها قوة حربية كبيرة استطاعت بها أن تحمى حدودها كما وفر لها قانونا يدعو إلى الإعجاب .

وبرغم ما بذل من مجهود فإن الإدارة الاقليمية كانت غير قادرة على إخضاع الأهالى لإرادتها فى كثير من الأحيان ، وكان الفساد ينتشر فيها إنتشاراً كبيراً كما كانت الحيـاة نفسها شاقة وعسيرة ، إلا على ذوى الثروات العظيمة من السراة والأغنياء .

ولم تدرك روما أن إصلاح الأحوال الاقتصادية فى البلاد التابعة لها من مصلحة الدولة الحاكمة ، لذلك لم تهتم بإصلاح شىء من أحوال هذه البلاد بل كانت تنظر إلى هذه البلاد على أنهـا بقرة حلوب يجب عليها أن تدفع أكبر قدر مستطاع من الضرائب إلى حاشية الامبراطور والامبراطور نفسه الذى لم تـكن هذه البلاد قدر رأته قط ، وأن تنفق على جيش طويل عريض لافائدة تعود عليها من تقويته وإعداده .

وعلى مر الزمن إزدادت الحالة الاقتصادية سوءا .

ولما كانت مصر والشام اقليمين غنيين بخيراتهما فقد تحملا قدراً كبيراً من الضرائب وقاسيا كثيراً من جبايتها .

وكان لسقوط الأمبراطورية الغربية فى أيدى الرعاع أثر كبير فى ضياع الأسواق التجارية من أيدى تجارها وصناعها أما (القسطنطينية) العاصمة الجديدة فقد اجتذبت كثيراً من تجار الشرق الأقصى .

وقد أضرت الحروب الطويلة بين الفرس والرومان التى استمرت طوال القرن السادس بتجار الشرق الأوسط ، كذلك كانت المحاولة التى قام بها الإمبراطور ( جستنيان ) لإعادة غزو الغرب ، محاولة عقيمة سببت له خسائر فادحة وكلفته ثمناً غاليا . وقد شعر كل من الشعبين الشامى والمصرى أنه ينفق أموالا كثيرة من إيراداته الضئيلة ليؤيد حكاما يهملون مصالحه ولا يهتمون إلا بإشباع رغباتهم ، وغير ذلك من المتاعب التى أحسوا بها فى هذه الأونة .

* * *

ان من العسير علينا أدراك مدى شعور الرجل والمرأة نحو الدين فى ذلك الوقت

وقد كان الشرق الأوسط دائماً مهداً للدين ومهبطا لوحى السماء ومسرحاً كبيراً لظهور الديانات السماوية ، كما كان الاغريق أساتذة الفلسفة .

ولما عرف ذلك ملوك الاغريق وأباطرة الرومان عمدوا إلى القضاء على التعصب الاقليمى بإدماج الآلهة المحليين فى مجموع الآلهة الاغريقية الرومانية . كما حاولوا أن يخلقوا جوا من الاتحاد الروحى فنصبوا أنفسهم آلهة وعملوا على إرغام الشعب على عبادتها .

ولكن كل هذه المحاولات كان نصيبها الفشل والخسران ، بل إن كثيراً من الأباطرة قد لقوا حتفهم بصورة لا تلائم موت الآلهة على الإطلاق — إن كانت الآلهة تموت — وبالرغم من كل المحاولات الكثيرة المختلفة الأساليب فإن الناس أعرضو عن هذا الابتكار وسخروا من هذا الاختراع فى مجال الدين . وبطبيعة الحال ماتت الآلهة المختلفة واضطر الناس أن يبحثوا لهم عن دين جديد .

## ظهور المسيحية

فى هذا الوقت ظهر السيد المسيح يدعو إلى دين جديد هو الدين المسيحى ، الذى ظهر فائزاً منتصراً ، غير أن فوزه وانتصاره قد تحقق بصعوبة شديدة وببطء كبير ، فقد لقى المسيح وأتباعه كثيراً من العنت والاضطهاد من أباطرة الروم وحكامهم على الخصوص ، مدة لا تقل عن ثلاثة قرون ذاق فيها المسيحيون ألوانا مختلفة من العذاب حتى اضطروا أن يتركوا المدن إلى الصحارى فرارا من وجه هؤلاء الأباطرة العتاة الذين كانوا يريدون ألا يعبد فى الأرض التى يحكمونها غيرهم ، حتى ظهر الأمبراطور قسطنطين الذى اعتنق الديانة المسيحية بعد انقضاء ثلاثة قرون على موت السيد المسيح .

وباعتناق الأمبراطور قسطنطين المسيحية انتشرت تعاليم الكنيسة فى الدولة الرومانية جميعها ، بل وفى خارجها ، غير أن السلطات الحاكمة كانت تمقتها وتحاربها وتطارد معتنقيها أينما حلوا وأينما ساروا ، مما أدى إلى عدم وجود نظام فى إتباع شعائر الدين ، ولا وحدة فى الشرائع والقوانين التى جاء بها الدين المسيحى .

ونظراً لأن الدين الجديد لم يكن قد وضع له تعريف محدود المعالم ، فقد ظهر بعض الأفراد المنحرفين فى كثير من المناطق المتعددة ، ولـكننا لا نستطيع أن نتعهم بالإلحاد .

وظلت الدولة تناهض أتباع الدين الجديد ، حتى دخلت فيه الهيئة الحاكمة واتخذته دينا لها . وما دام الدين الجديد قد أصبح دينا رسميا للدولة ، فلا بد من وجود وحدة فى الدين ، وإلا عد اتخاذها له أمراً لا معنى له ، فمرت بالناس سلسلة طويلة مريرة من المحاولات التى قصد بها وضع تعريف للدين وقد بلغت هذه المحاولات أشد أدوارها فى المجالس الـكنيسية حيث قام القساوسة مجتمعين بمحاولة الوصول إلى اتفاق حول هذا التعريف المطلوب .

ولـكن كل هذه المحاولات باءت بالإخفاق أيضاً ، لأن عدداً من الأقاليم التابعة للدولة كانت لا تزال تحتفظ بمشاعرها الدينية الخاصة من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان بعضها الآخر ينكر على الحكومة المركزية أعمالها وتصرفاتها ، وقد وجد هذا الفريق فى الهرقطة والإلحاد فرصة يعبر بها عن كراهيته وسخطه ، وانتشرت فى ذلك الوقت المنازعات المذهبية التى كانت بمثابة شعار للفرقة وللقومية .

وقد قامت هذه المنازعات حول طبيعة السيد المسيح . فجماعة يغلبون الجانب البشرى على الجانب الإلهى فى ذاته عليه السلام . وجماعة أخرى يغلبون الجانب الإلهى على الجانب البشرى . وجماعة ثالثة يقولون بالطبيعتين ، وهـــذا هو المذهب الرسمى للحكومة .

وما أن اقترب القرن الخامس من نهايته حتى قام أهل الشام وأهل مصر يحاولون أن يزيحوا عن كاهلهم سلطة الأمبراطور الرومانى وخاصة سلطته المدنية .

أما الناحية الدينية فقد كانوا يتبعون فيها مذهبين رأيا فيهما تبسيطا لآداء الشعائر ، وهما المذهب القائل بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين وأتباعه قليلون ، أما الأغلبية فقد كانوا يتبعون المذهب القائل بأن المسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة وهى تغليب الجانب الإلهى على الجانب البشرى .

ومن قديم الزمن كان الساميون تحبون أن يكون دينهم على الدوام طابعه الجد والحزم ولـكن فى هوادة ولين .

* * *

ومنذ فجر التاريخ كانت صحراء العرب ترسل نورها الساطع إلى البقاع المجاورة لها وخاصة أراضى ( الهلال الخصيب ) ، وقد تأثر أهل مصر والشام بما ترسله لهم هذه الصحراء فأصبحوا من غلاة الساميين وخاصة أهل الشام المتاخمون لها .

كما استطاعت صحراء العرب هذه أن تحمل تلك الأقاليم التى تحف بها على تعلم لغتها العربية الآرامية منذ قرون بعيدة قبل الميلاد أو إدراك سهولتها على الأقل . وقد اندفع كثير من سكان الجزء الجنوبى من جزيرة العرب ، إلى الشمال بسبب الجدب الذى كان يصيب هذا الجزء ، وقد حدث هذا قبل ظهور (محمد) بزمن غير بعيد ، ولذلك نرى كثيراً من رجال قبائل بنى غسان الذين استوطنوا المناطق الملاصقة لحدود الامبراطورية الرومانية فى بلاد الشام ، قد اعتنقوا الديانة المسيحية ، وهذا من أوضح الأدلة على أن هؤلاء العرب دينيون بطبعهم لا يستطيعون أن يحيوا بغير عقيدة .

ولقد كان لنشاط حركة التجارة وزيادتها أثر فى اندماج السكان واتصالهم بعضهم ببعض ، فالتجار العرب الذين يخرجون من حضر موت ليذهبوا إلى فلسطين أو دمشق ، يمرون غالبا بمكة حيث الـكعبة التى يقدسها العرب ، وكذلك تجار المسيحيين واليهود الذين قدموا إلى الجزيرة العربية واستقروا فى الجزء الجنوبى من اليمن ، عرفوا الـكثير عن مكة وبيتها الحرام عند مرورهم بها .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول بأنه لم يكن هناك فاصل يميز بين سكان البدو وسكان الحضر فى الجنس والثقافة .

« للموضوع بقية »